يكون كاذناب الطيور التي عاشت في الدور الجيرنوحي المذكور

بقي علينا في هذا الباب الاعضاء الاثرية ولقد بحث فيها غير واحد من كتبنا واخص منهم بالذكر الدكتور ابن ابي خاطر فمن اراد الاطلاع على شيء من ذلك فليراجع مقتطف السنة الاخيرة اي سنة ١٩٠٨ فان فيه امورًا يجدر بالباحث معرفتها . ولا ريب ان سيقي درس الاجنة مثالث من الشواهد الواضحة على النشوء او على تكرير النرد لتاريخ النوع وانما اكتفيت بهذا القدر القليل حرصاً على اذهان الجمهور من الملل انيس الياس الخوري

الفضائل

ظهرت في مصر منذ سنين عديدة حركة ترمي الى الاستقلال السياسي والحرية السياسية وهي حركة شريفة يشكر عليها كل مشترك فيها اذا سار في خطة حكيمة رشيدة ولازم التأني والاعتدال ودخل البيوت من ابوابها

ولكن هناك امر لا بد منهُ لبلوغ هذا الاستقلال ويجب على كل محب لمصر الاهتمام بهِ وهذا الامر هو تقويم الاخلاق وتهذيب النفوس كي تتحرر من عبودية الاهواء وتنال الاستقلال الادبي الاخلاقي

ليس العار ان يكون الانسان خاضعاً لاحكام غيره بل العار كل العار في ان يكون عبدًا لشهواتهِ واسيرًا لاهوائهِ . لذلك وجب على كل من لهُ لسان ينطق وقلم يكتب ان يعمل لتهذيب الاخلاق وترقية النفوس وتحرير الارادة من رق الشهوات

وقد وجدت من الواجب عليَّ نحو مواطني الافاضل ان الفت انظارهم لهذا البحث المفيد بسلسلة مقالات عزمت على نشرها على صفحات المقتطف كلما سمحت الفرصة وقد جعلت موضوع هذه المقالات اهم شيء في تكوين اخلاق الانسان وهو الفضائل والبحث في هذه المقالة يتناول (١) تعريفها — (٢) مقاتلها — (٣) طريقة الحصول عليها — (٤) علاماتها — (٥) تقسيمها

(١)

(تعريف الفضيلة) الفضيلة (لغة) هي المزية وخلاف النقيصة والرذيلة كالعفة والقناعة ونحوها والدرجة الرفيعة في الفضل . والفضل ضد النقص . والبقية والزيادة

(وخلقاً) هي الملكات الكريمة التي تعصم الانسان من الرذائل والنقائص وترفعهُ الى اوج الكمال الانساني . بل هي تاج مرصع على رؤوس الفضلاء وصولجان يملكون بهِ

الشهوات ويقمعون بصولتها الدنايا والمنكرات

بل هي نعمة انعم الله بها على عباده الصالحين المتقين ورفع بها مراتبهم عن بقية بني الانسان وميزهم بها على اخوان الحيوان

(٢)

(منافع الفضيلة) والفضيلة منافع وفوائد تعجز عن احصائها الاقلام البليغة وعن وصفها الالسن الفصيحة

قال شاكسبير الشاعر المشهور في وصف الانسان انهُ قد يلوح حتى يسمو على الملائكة ويسفل حتى يحط عن الشياطين والابالسة . وما ذلك الرجل السامي الذي فاق الملائكة نوراً وبهاء سوى رجل الفضيلة — وما هذا الانسان القبيح المخيف القذر الاَّ نصير الرذيلة

لا ينفع الانسان جمال وجههِ وحسن بزتهِ اذا كان خالهُ قبيحاً وكانت نفسهُ دنيئة — ما هذه المياكل الانسانية التي ترونها امامكم سوى مساكن تاوي اليها الارواح فماذا يفيدكم جمال المسكن اذا كان الساكن قبيحاً . وماذا تنفعكم نظافة المأوى اذا كان الآوي اليهِ خنزيراً

ان للجسم لذات لا تنكر ولكن الانسان ميَّال للمبالغة فيها — وللنفس والعقل لذات اعظم واكبر ولكن قلة تربية النفوس قللت من قيمتها وحطت من مرتبتها

وليست الفضيلة مانعة للذات الجسدية ولكنها مرتبة لها تحصرها ضمن دائرة الاعتدال والحلال وتمزجها بمزيج التقوى والشرف والعدالة

الفضيلة — تجعل الضمير مطمئناً والبال هادئاً — الفضيلة تجعل الانسان شاعراً بانهُ شريف ومحبباً للناس ومحبباً لهُ احترامهم واعتبارهم حتى لو كانوا من ألد اعدائهِ

قالوا ان (العدل اساس الملك) واقول ان (العدل مظهر من مظاهر الفضيلة) وان الفضيلة اساس الاجتماع والعمران بل اساس نجاح الفرد ونجاح المجموع

لولا الفضيلة لعم الظلم وانتشر الفساد وساد الكذب والنفاق وتسلط الشقاق والشر . وفاز الشر وانطمع ومات العدل وانقرضت النزاهة . واندثر الصدق . وانمحى الاتحاد . وقضي على الشرف والعفة والقناعة والصبر والجلد والشجاعة

لولا الفضيلة لما بقي لاحد من بني الانسان صحيفة بيضاء ناصعة بل لكانت كل صحائفهم ملوثة بالفضائح مدنسة بالمنكرات والقبائح

لولا الفضيلة لعق الولد اباهُ وتعدى الوالد على بنيهِ . وانكرت الاخت اخاها . وتبرأ الاخ من اختهِ

لو سادت الفضيلة عندنا ولو بين زعمائنا وكبرائنا لما صممتم باختلال الامن العام ولا بتلك الجرائم والمنكرات . لو سادت الفضيلة عندنا بين قادة الافكار والكتاب والادباء لسرنا سيرًا سريعًا نحو النجاح والارتقاء . لو سادت الفضيلة عندنا بين المعلمين والمعلمات والمربين والمربيات لكان لنا بعد زمن قليل جند من جنود الخير نتقي بهم هجمات الشر وندفع بجموعهم جيوش المعاصي والموبقات التي اثخنت في الناس جراحًا وسودت وجوهًا كانت قبل ذلك بيضاء

(٣)

طريقة الوصول الى الفضيلة

ورب سائل يسأل اذا كانت هذه منافع الفضيلة فكيف السبيل الى تحصيلها

الجواب على ذلك — كل من سار على الدرب وصل — ان طريق الفضيلة في أولهِ وعر لا بد لصعودهِ من تجشم المشاق والتعرض للاشواك والأدغال والقيظ والبرد القارس ولكن متى سار الانسان فيهِ ورأى المصاعب تقل والمشاق تخف وتعودت نفسهُ على مقابلتها ومكافحتها والفوز عليها وفي الفوز لذات لا تذكر . ثم متى قطع قاصدها المرحلة الاولى رأى نفسهُ في خمائل وروض وجنات تجري من تحتها الانهار في مكان مرتفع محاط بالمناظر الطبيعية الجميلة واذا اجال طرفهُ رأى واديًا ضيقًا منحدرًا سلالمًا يالوحول ورأى اناسًا فيهِ يتمرغون بتلك الاوحال ويحاولون الهرب منها والصعود الى فوق ولكن الطريق زلقة والمياه القذرة تنحدر فيها كالسيل الجارف فلا يمكن للذين انحدروا الى هذا القاع ان يصعدوا الى اعلى ويقاوموا هذا السيل العرم

اما (طريق الرذيلة) فانهُ واسع في البداية ترى فيهِ الرياحين والازهار فتشمها وانكبها محمومة مخدرة للاعصاب لا تلبث ان تسكر الداخل فيتوغل فيها ويأخذ في الانحدار وكلما تقدم في الطريق زاد الانحدار وتكاثرت المياه القذرة حتى تصبح كالسيل فتأخذ الداخلين وتخطف ابصارهم وتعمي بصائرهم وما هي الا عشية وضحاها حتى يروا انفسهم سابحين في بحر من الوحول يستنشقون الروائح الكريهة ويتخبطون في دجور من الظلام خبط عشواء فاذا لاح لهم وميض برق نظروا الى اعلى فرأوا جبل الفضيلة الشاهق بجناتهِ وانهارهِ وسكانهِ وروائهِ ونورهِ فندموا على سقوطهم في هوة الرذيلة واخذوا يفكرون في الخروج من هذا المأزق والتخلص من هذا المضيق ولا خلاص ولا مناص

ما هذه تخيلات واوهام بل هذه حقائق نرونها كل يوم بعين البصيرة ولا اخال واحدًا

منكم لم ينفطر فؤادهُ حزناً على صديق لهُ سقط من عرش الفضيلة الى هوة الرذيلة بعد ان سعى ذووه وأصدقاؤهُ في انتشالهُ فعلينا ان نرسم امام اعيننا خطة الفضيلة ونسير فيها وعلينا ان نحاسب انفسنا كل يوم ونقيس المسافة التي قطعناها ونبحث في اتجاهنا وهل حدنا عن الخط المرسوم ام لا نزال عليهِ

ولكن هل يكفينا ذلك — كلا بل علينا واجب مقدس وهو ان ننظر الى ذوينا ومن هم تحت مراقبتنا ونضع لهم خطة السير ونلاحظهم كيلا يضلوا السبيل . وننظر ايضاً الى مواطنينا ونرشدهم ونناديهم اذا ضلوا ونرجعهم الى الصراط السوي . واذا عثر احدهم وابتدأ في الانحدار والسقوط فعلينا ان نرمي لهُ حبل النجاة ونرسلهُ اليهِ لكي يتمسك بهِ ثم نجذبهُ الى مكان النجاة والسعادة فليست الفضيلة قاصرة على انقاذ الانسان نفسهُ من الرذيلة بل من الواجب علينا ديناً وشرفاً ومروءة ان لا نبخل على غيرنا بالمساعدة والمعاونة

ومن اهم الطرائق للوصول الى الفضيلة درس مبادئها وتعاليمها والاقوال المأثورة عنها وعن تأثيرها في ترقية الانسان والامتناع عن قراءة الكتب الساقطة المخالفة للآداب والاديان وعن السكر والمقامرة ومعاشرة الاشرار والساقطين لان مكروب الشر كثير العدوى عظيم الخطر . وملاحظة اقوال الفضلاء المعاصرين لنا واعمالهم واستحسانها سرًّا وجهرًا واقوال واعمال انصار الرذيلة وتحقيرها في الخفاء والعلانية واعادة الانسان نظرهُ في كل قالهُ وعملهُ في يومهِ وتطبيقهُ على مبادئ الفضيلة وتعويد النفس على الارتياح والسرور عند اتيان اي عمل شريف مطابق للذمة والتألم والندم عند اتيان اي عمل دنيء او مخالف للذمة والضمير والسعي في تطهير النفس من الاميال الدنيئة وغرس الملكات الطيبة والاخلاق الشريفة — والخلاصة ان من واجبات كل فاضل ان يعمل في آخر كل يوم ميزانية اعمالهِ فيضع الاعمال الفاضلة في جدول المكاسب والاعمال والرديئة في جدول الخسائر ومن واجباتهِ ايضاً ان لا يعذر نفسهُ بل يحاسبها على اقل هفوة ويؤنبها اذا ضلت طريق الفضيلة

ولما كان الانسان كثيراً ما يتهمهُ الغرض عن تمييز حقيقة اعمالهِ فلا بد لهُ من اختيار صديق او اكثر من مارسوا الفضيلة والفوها ليراقبوا سلوكهُ ويحضوهُ النصح فاذا حاد عن الطريق السوي اعادوهُ اليهِ بالموعظة والقدوة الحسنة وحبذا لو وجد الانسان اولئك الناصحين في ذوي قرباه فانهم يكونون ابرّ بهِ من الغريب واذا تعذر ذلك فالقريب الفاضل خير من القريب العاطل

(٤)

علامات الفضيلة

الفضيلة علامات — والرذيلة دلائل

اذا نظرت من بعيد نسورًا حائمة على مكان علمت ان فيهِ جيفة . واذا مررت بمكان وشممت رائحة منتنة علمت ان هناك جثة او اقذارًا او شيئًا متعفنًا

واذا اقبلت على بقعة من البقاع وشممت رائحة زكية علمت ان هناك ازهارًا ورياحين

والفضيلة رائحة عطرة كما ان للرذيلة رائحة خبيثة عفنة منتنة

الشجرة الطيبة تعرف من ثمرها — والشخص الطيب يعرف من اعماله

يحاول كثيرون من السائرين في سبيل الرذيلة ان يغشوا الناس ويخدعوهم فيسرقون ثوبًا من اثواب الفضيلة ويلبسونهُ ولكن اذا وجه العاقل مناظر البحث الى هذا الثوب وجدهُ يشف عما تحتهُ من الدنايا والارجاس . ولا بد لحق ان يسود الباطل . ان الله يحق الحق ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقًا

من علامات الفضيلة

(١) استهجان الرذيلة وتحقيرها وعدم التماس العذر لصاحبها . لان اكثر الذين يعذرون الرذيلة يميلون في سرهم اليها (ومن كان بيتهُ من زجاج لا يجرأ على رشق الناس بالحجارة)

(٢) قوة الارادة لان الرذائل في هذا العالم جذابة براقة تخدع النفوس الضعيفة وتأسر الارادات الواهنة

(٣) التقوى الحقيقية وهي الاعتقاد بالخالق وبانهُ مدبر هذا الكون وبان شعرة واحدة من راس الانسان لا تسقط بدون اذنهِ . ومن لوازم هذا الاعتقاد السير حسب وصايا الدين

للدين علاقة سببية عظيمة بالفضيلة فقد خلق الانسان ميالاً لارضاء شهواتهِ واهوائهِ فلا يمنعهُ عن المعاصي والدنايا سوى خوف احتقار الناس اياهُ وخوف العقاب

اما احتقار الناس وعقاب القانون فاجتنابهما ميسور بالستر لذلك تجد كثيرين ممن يدعون الفضيلة يرتكبون اعظم المحارم والآثام سرًا — واما العقاب الالهي في الدنيا والآخرة فهو الرادع الاكبر للمتقين الحقيقيين

(٤) معاشرة انصار الفضيلة والابتعاد عن اتباع الرذيلة

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينهِ فكل قرين بالمقارن يقتدي

كل من يميل الى احتكاك بساقط لا بد ان يكون ساقطاً — وكل من يبتعد عن الادنياء ومعاشرتهم ومخالطتهم ويتقرب من الاتقياء والفضلاء لا بد ان يكون تقيًّا فاضلاً

واحذر معاشرة اللئيم فانهُ يُعدي كما يعدي السليم الاجربُ

(٥) الابتعاد عن اسباب المعاصي — لان النفس امارة بالسوء واحسن طريقة لاجتناب الخطر اتقاء اسبابهِ والابتعاد عنهُ وعدم التعرض لهُ — فقد تكون خطوة واحدة في ارض كثيرة الزلق سبباً في وقوع صاحبها في هوة الهلاك.

ومن اسباب المعاصي — المسكرات — والمقامرة — والاستهتار بالصغائر الذي يؤدي الى الكبائر

(تقسيم أُمم الفضائل)

عرفنا الى الآن ما هي الفضيلة وما فائدتها — وما هي طريقة الوصول اليها . وما هي العلامات الدالة عليها . وبقي علينا ان نبحث في تقسيمها

تنقسم الفضائل الى قسمين

فضائل اصلية وهي عبارة عن امهات الفضائل — وفضائل فرعية وهي ناشئة من الاولى والفضائل لاتعداد لها ولكننا سنقصر الكلام على اهمها وهي :

ا (الاستقامة) فضيلة اصلية ويتفرع منها (١) الصدق (٢) الوفا (٣) الامانة (٤) والعدل

ب (العفة) ويتفرع منها (١) القناعة (٢) التقشف (٣) الزهد في الدنيا

ج (المحبة) وتتفرع منها (١) المودة (٢) الشفقة (٣) النجدة (٤) المروة (٥) والاحسان للفقير

د (الشجاعة) ويتفرع منها (١) الاقدام (٢) الصبر (٣) الجلد (٤) قهر النفس وهو اعظمها

وموعدنا المقالة التالية وموضوعها (الاستقامة) (نجيب شقرا)